إحلال السلام والأمن فى عالم اليوم .. حلمٌ ممكن أم وهْمٌ مُحال ؟!

محمد سعد زغلول سالم

الأربعاء ٢٧ ديسمبر ٢٠٢٣

كثيراً ما يتفكر المرؤ فى الوسائل التى يمكن أن تؤدى إلى إحلال السلام والأمن فى عالم اليوم المُشتعل بالحروب والمُحتقِن بالخلافات والعداوات الدينية والعِرْقية والذى يتحلَّل تدريجياً بفعل الدعوات والحركات الهدامة التى وضعت نصْبَ أعْيُنِها تحقيق أهدافٍ شيطانية خبيثة تتصدرها نشرُ المثلية الجنسية وهدم كيان الأسرة وتغييب الدين عن جميع مجالات الحياة. ورغم تعدُّد أسباب ما يحيقُ بالعالم منذ عقودٍ طويلة من آلامٍ وعذاباتٍ طالت أغلبية الشعوب والأقوام الضعيفة والمغلوبة على أمرِها على أيدى شعوبٍ وأقوام أخرى ملكَت زمامَ القوة ولكنها فقدَت الضمير الإنسانى وصارت تتصرف بفطرة وحوش الغابة .. فإن تأمُّل أسباب ما يحدث فى عالم اليوم يكشف دونما حاجةٍ إلى جَهدٍ كبير فى إعْمال الفكر عن عاملَيْن رئيسيَّيْن يتسببان فى ما يعانيه كثرةٌ من الشعوب من هذه الآلام وهذه العذابات أولهما هو نشأة وإستفحال سرطان الصهيونية الخبيث وثانيهما هو القوة العسكرية الغاشمة التى تتمتع بها قوتان تحكمهما سياسات إجرامية همجية هما الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا إضافةً إلى قوةٍ أخرى أكثر وحشيةً وهمجيةً ولكنها تتخفى كالأفعى وتتلون كالحَرْباء حتى تتمكن من إقتناص فرائسِها وإبتلاعِها والسيطرة عليها وهى الصين. كما يتضح أيضاً وجود عامل ثالث يمثل خطورة كامنة على أمن وسلامة العالم رغم أنه فى طور التخلُّق المستمر بلا هوادة وهو القومية الهندوسية المتناميَة التى لا يتنبه أحدٌ إلى أخطارها التى ستكون ربما خلال سنواتٍ قليلة قوةً عسكرية غاشمَة أخرى إعتماداً على الزيادة السكانية المضطردة فى الهند الموبوءة بهذه القومية المتطرفة والتى فاقت الصين فى عدد السكان وهو العامل الأكثر إغراءاً للدول ذات الكثافات السكانية العالية والذى يدفعها للتطلع إلى إحتلال مكانةٍ دائمة بين القوى الكبرى تتيح لها ممارسَة دَوْرٍ فى الهيمنة والسيطرة على مجريات الأمور فى هذا العالم والإستحواذ أو الإستيلاء على نصيبٍ من الثروات الطبيعية فى الدول الضعيفة العاجزة عن حماية ثرواتها ومقدراتها .. وهذا هو قانون الغاب الذى يحكُم سياسات وعلاقات الشعوب والدول فى العالم منذ بدايته وسوف يظل كذلك حتى إنتهائه.

أمَّا عن سرطان الصهيونية الخبيث فهو داءٌ وَبيل إبْتُلِيَتْ به البشرية منذ عهدٍ مُغرق فى القِدَم يعود إلى آلافٍ مضت من السنين عندما بدأت أولى خلاياه فى التكون حتى صارت ورماً خبيثاً ينهشُ فى ضمائر البشر ويلتهِم فطْرَتهم السوية ويُدَمِّر كُلَّ ما يمت إلى المبادىء والأخلاق والفطرة الإنسانية السَوِيَّة التى جاءت فى العقائد البشرية وفى الأديان التى يَدينُ بها البشر كما جاءت أيضاً كنتاجٍ إنسانى إجتهد آلافٌ من المُفكرين والفلاسفة على مَّر هذه السنين فى صياغتها وتعددت محاولات أصحاب المبادىء السامية والفطرة الخَّيِرَة والضمائر الحية لنشرِها وفرْضِها فى إطاراتٍ إنسانية وقانونية متعددة حتى تم إنشاء منظمة الأمم المتحدة وما يتبعها من هيئاتٍ إنسانية وقانونية بعد إنتهاء مأساة الحرب العالمية الثانية.

ومما يثير الحيرة والإستغراب الذى يظل بغير تفسير مُقنع حتى الآن فى ما يختص بالجذور الفكرية التى نبتَ منها سرطان الصهيونية الخبيث هو كيفية نشوء هذه الجذور فى بيئةٍ دينية تتضمن كتابات بعضُ نصوص سفر التثنية وهو السفر الخامس من أسفار التوراة اليهودية التى لا يُخالج المطالع لها أيَّاً ما كانت عقيدته الدينية أو عقيدته الفكرية أىُّ شكٍ فى كَوْنِها نتاجاً بشرياً وحْشياً ضالاً لا يؤمن بمفهوم الإله الواحد الخالِق لكل البشر والرحيم بهم والمُحب لهم والذى يستحيل أن يَسْمَح أو يَقبل أو يأمُر بعضاً من خلْقِه بإرتكاب فظائع وجرائم لا تتوافق بل وتتناقض مع فطرتهم التى خلقهُم بها ضد بشرٍ آخرين أيضاً من خلْقِه أيَّاً ما كانت معاصيهم أو ذنوبهم. ولذا فإن تفسير كيفية نشأة هذه الكتابات المُتضمنة فى سياق هذه النصوص الدينية بأنها نتاج فِكرى لمرحلةٍ من مراحل الشرك والضلال والوحشية والهمجية التى تعددت كثيراً طوال تاريخ بنى إسرائيل يظل هو التفسير الأقرب للقبول به لتفسير كيفية نشوء الأفكار والمبادىء التى شكلت الخلية الأولى للصهيونية والتى نمَت وتضخمت وتوحَشت حتى صارت مثلما نراها ونشاهدها الآن غرْساً شيطانياً ونبتاً ساماً وسرطاناً خبيثاً يتمدد بغير توقف وينتشر كالوباء فى أرجاء الإنسانية ينشر الخرابَ والدمارَ ويقضى على المبادىء والأخلاق ويُفْسِد الفطرة والضمائر حتى صار القضاء على الصهيونية وإستئصال شأفتِها وإقتلاعِها من جذورها قناعة دينية وفكرية ومنطقية وضرورة لا غِنى عنها وخياراً لا بديل له وحلاً وحيداً لتلافى شرورها الشيطانية التى طالت الكثير من شعوب العالم وتسببت فى نشوب حروبٍ ومنازعات راح ضحيتها ملايين من البشر الأبرياء ولازالت فظائعها وجرائمها التى ترتكبها منذ خمسةٍ وسبعين عاماً وحتى يومنا هذا بغير توقف أو إنقطاع ضد الفلسطينيين منذ نشأ فى كَنَفِها وتحت ظلالها الكيان الصهيونى الإجرامى فى أرض فلسطين المُبارَكَة شاهِداً على الأصول الشيطانية الخبيثة للصهيونة ودليلاً على أن القضاء عليها وإستئصالها من نفوس المؤمنين بها هدفٌ إنسانى لا بديلَ عنه للتخلص من أحد وأهم أسباب الصراعات والحروب ولإحلال السلام والأمن فى العالم.

وإلى جانب سرطان الصهيونية الخبيث يُمثل إمتلاك كلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والصين لقوة عسكرية غاشمة يتحكم فيها حَمْقى مُنتشون بغرور القوة خطراً جسيماً على البشرية كامِناً إلى حين ولكن لا مفَّرَ مِنْ أن يتفجَّر يوماً ما مُشعلاً فتيلَ حربٍ عالمية ثالثة سوف تعودُ إذا نشبَت بالأسلحة التقليدية بالحضارة الإنسانية إلى عهود ما قبل عصر الثورة الصناعية أو إلى العصور الحجرية البدائية إذا نشبَت بالأسلحة الذرية والنووية. وقد تسببت الولايات المتحدة الأمريكية منذ بدايات خمسينيات القرن الماضى فى إندلاع عديدٍ من الحروب هى الأكثر وحشية وهمجية فى تاريخ الإنسانية فى أنحاء العالم بدوافع كثيرة نشأت كلها فى رحم سياسات إستعمارية قائمة على الحلول محل الإمبراطورية البريطانية التى كانت تغرب عنها الشمس بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لبسط النفوذ والهيمنة الأمريكية إعتماداً على القوة العسكرية الغاشمة والإقتصاد الأقوى والأكبر على مستوى العالم حينذاك. وقد شملت تلك الدوافع أسباباً سياسية كالتصدى للمد الشيوعى فى قارة آسيا وهو ما تسبب فى حدوث الحرب الكورية وحرب فيتنام ..

وأسباباً إقتصادية للسيطرة على منابع البترول فى دول الخليج العربى والعراق والسيطرة على الثروات المعدنية الضخمة فى أفغانستان .. وأسباباً دينية كالقضاء على الإسلام إذا إستطاعت أو تغييبه عن حياة المسلمين على الأقل.

ورغم ما قد يبدو منطقياً ونظرياً من أن تحييد الولايات المتحدة الأمريكية عسكرياً وذلك بتفتيتها إلى بضعة دول أو إلى ولايات مستقلة منفردة لا تجمعها سياسات وأهدافٍ واحدة ولا تحميها قوة عسكرية واحدة هو السبيل الوحيد لكَبْح جماح السياسات الأمريكية وكف أذاها وشرورها عن معظم بلدان العالم المُسالِمَة .. فإن هذا التصور يحمل فى طياته خطراً آخر داهِماً على العالم لا يقل فى عواقبه عن الخطر الذى تمثله الولايات المتحدة الأمريكية إن لم يكن أكثر سوءاً فى الشرور التى سوف يتسبب فيها وهو خطر إفساح المجال أمام القوى الغاشمة الأخرى التى تمثلها روسيا والصين ـ وربما الهند فى المستقبل ـ للحلول محل أمريكا وفرض هيمنتها وسيطرتها على بلدان العالم بغير أن تلقى أى مقاومة أو رادع فى حال إختفاء القوة الأمريكية من ميزان القوى العالمية التى تحفظ إلى حدٍ كبير توازن القوى مع كل من روسيا والصين. فالقوة العسكرية الأمريكية وإن كانت لم تردع روسيا عن الهجوم على أوكرانيا وإستعادة أجزاءٍ منها كانت جزءاً من الإمبراطورية الروسية فى ما مضى إلا أنها توفر الحماية العسكرية لأوروبا التى لا تستطيع حماية نفسها من أخطار روسيا والصين المُحْدِقَة بها .. كما أنها توفر الحماية العسكرية لبضعة دول أخرى لربما كان وجودُها سَيُمْسِى من أطلال الجغرافيا السياسية فى العالم لولا هذه الحماية التى توفرها لها القوة الأمريكية الغاشمة وهى تايوان وكوريا الجنوبية ودولة الكيان الصهيونى فى إسرائيل.
ولذا فإن الدول المُسالمة الداجنة الضعيفة فى عالم اليوم تجد نفسها واقعةً فى مأزق شديد الصعوبة لا يبدو لها منه مخرجاً فى المستقبل القريب على أقل تقدير. فقد صارت التبعية والإحتماء بأحد القوى الكبرى الغاشمة والسير فى ركابها مقابل التفريط فى السيادة الوطنية والسماح بإستباحة نصيبٍ من الثروات القومية هى السبيل الآمِن الوحيد للدول الضعيفة لحماية نفسها من أطماع بقية القوى الغاشمة الأخرى. ومما يزيدُ الأمرُ سوءاً أنَّ خيار التبعية لقوةٍ غاشمة كبرى صارَ كما لو كان أمراً مفروضاً لا مفر منه ليسَ مقصوراً فقط على الدول الضعيفة العاجزة عن حماية نفسها بل صارَ خياراً آمِناً حتى للدول القوية مثلما هو حال دول الإتحاد الأوروبى التى لم تمنحها وحدتها وقوتها العسكرية وتقدمها العلمى وثرواتها وإقتصادها الأضخم عالمياً بعد الإقتصاد الأمريكى شعوراً بالأمان إزاء ما تستشعره من مخاوف مما تمثله القوة الغاشمة لروسيا من أخطارٍ توسعية موروثة منذ حقبة الإتحاد السوفييتى وهى المخاوف التى دفعتها إلى تكوين حلف الناتو والإرتباط العضوى بالولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن رغم إختلاف الدوافع التاريخية لهذه التبعية العسكرية والسياسية على مدار العقود الثمانية الماضية منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن.

وفى ضوء هذه الأحوال الراهنة فقد يبدو أنه ما مِنْ سبيلٍ للنجاة أمام الدول الضعيفة أو المسالمة سوى إتباع الحكمة الخالدة التى تقول إنَّ فى الإتحاد قوة. وورغم تعدد الوسائل التى يمكن أن تتبعها هذه الدول لتحقيق هذه الحكمة والإلتزام بها فإن أيسرُها سبيلاً وأهونها ضرراً هو على الأرجَحْ إشتراكها وتعاونها فى تكوين الإتحادات الإقليمية القارية على غرار الإتحاد الأوروبى فتقوم دول أمريكا اللاتينية على سبيل المثال بإنشاء إتحاد إقتصادى وحلف عسكرى خاص بها وتقوم الدول الإفريقية بإنشاء إتحاد إقتصادى وحلف عسكرى خاص بها أيضاً. كما يمكن للدول الآسيوية التى تتوجس من أطماع القوة الغاشمة الصينية وتطلعات القوة الغاشمة الهندوسية الصاعدة بدَوْرِها أن تقوم بإنشاء إتحاد إقتصادى وحلف عسكرى خاص بها .. فتعدد الأقطاب العسكرية فى العالم يمثل أفضل الوسائل للحفاظ على توازنات القوى وعلى سيادة وثروات الدول والشعوب التى تتشارك فى إمتلاك قوةٍ عسكرية قادرة على حفظ سيادتها الوطنية وعلى حماية ثرواتها القومية من أطماع الدول والقوى الغاشمة الأخرى.

ومِمَّا يثيرُ مشاعرَ الحزن فى العقل ومشاعرَ الحسرة فى النفس النظرُ والتفكير ومحاولة تفسير أسباب ما آلت إليه الأحوال الراهِنة للدول الإسلامية العربية من ضعفٍ وهوان وتبعية سياسية وعسكرية ذليلة مَقيتة للولايات المتحدة الأمريكية وهى العدو الأول لدينها ووحدتها وأيضاً لروسيا التى لا تقل فى عداءاتها الدفينة للأمة الإسلامية عما تكِّنُه لها سياسات أمريكا وسياسات دول الإتحاد الأوروبى على حدٍ سواء .. والأنكَى من ذلك لجوء بعض هذه الدول إلى تطبيع وتوثيق علاقاتها مع الكيان الصهيونى الإجرامى وهى تعرف يقيناً أنها يوماً ما سوف تكون فريسةً سائغة للقوة الغاشمة للولايات المتحدة الأمريكية التى يقوم هذا الكيان الإجرامى بتنفيذ سياساتها فى دول العالم الإسلامى والعربى بالوكالة عنها. وتفيضُ هذه المشاعر المُفْعَمَة بالحزن والأسى فى عقل ونفس كُلِّ مسلم لأن حكمة فى الإتحاد قوة ومنعة وحماية وأمان وتأمين بالنسبة لهذه الدول ليست مجرد حكمة بلاغية ومنطقية بل هى فرضٌ دينى وأمرٌ شرعى ذو جوانب عسكرية وسياسية وإقتصادية من المفروض أنه واجب الإتباع على كُلِّ من يتولى أمانة ومسؤولية الحكم فيها. كما أنَّ هذا التجاهُل والتغافُل والإلتفات المُتعَمَّد عن هذا الأمر الإلهى الذى تكرر كثيراً فى عديد من آيات القرآن الكريم وتكرر أيضاً كثيراً فى عديدٍ من الأحاديث النبوية الصحيحة والذى يمثل طوقَ النجاة الوحيد أمام الأمة الإسلامية للحفاظ على دينِها وهويتها فضلاً عن حماية سيادتها وثرواتها هو حالٌ شاذ فى أمةٍ بلغت الغاية فى الضعف والتبعية والهوان ولاتزال راضيةً به وتستمرىء بقاءَه بغير أن تسعى إلى تغييره .. وهو حالٌ مؤلم ومؤسف لا يملك المرؤ إزاءه سوى الدعاء عَسَى أن يُقيِّض الله لهذه الأمة الغافلة الذليلة التى كانت فى ما مَضى خيْرَ أمةٍ أُخْرِجَت للناس من يأخذ بها إلى سبيل الوحدة والعزة والمَنَعة فى عالم الغاب الذى تحيا فيه الآن قبلَ أن تظل سادِرةً فى غفلتِها ومعصيتِها وفسادِها حتى تلقى حتفها فى مقبرة التاريخ بغير أن يأسَف على غيابها أو يحزن لهلاكِها أحد بعدما كانت فى ما مَضى من أزمانٍ غابرَة منارةً هادِيَة من منارات هذا العالم تهديه فى ظلمات الجهل والوحشية والهمجية التى كان يحيا فيها فى ذلك الحين إلى ضياء التحضُّر والمدنية والتقدُّم.